وجهة نظر في استراتيجية الكتابة الطفلية
" الصعوبات والأهداف "

د/ زرارقة عطاءالله
قسم علم النفس وعلوم التربية/جامعة الأغواط

يتضمن مفهوم استراتيجية الكتابة الطفلية ,على أبعاد تقنية وفنية .,يجب مراعاتها في النص المقدم للأطفال. ولا تخلو تلك الأبعاد من صعوبات موضوعية ومنهجية , بدليل أن الكتابة الطفلية لا تهدف إلى تجسيد المواقف والحدود التربوية فقط ووإنما تتجاوز ذلك إلى ترسيخ المواقف الفنية والقيم الجمالية أيضا. ومن هذه الزاوية تتضمن هذه المداخلة على بعض منافذ تلك الصعوبات المرتبطة بخصوصيات الطفل أصلا,وبكيفية ارتقاء الكاتب إلى فهم طبيعة تلك الخصوصيات, وفق حيثيات نظرية المعرفة , والمقومات الثقافية والفنية , ومبادئ وأسس التنشئة . وعلى أساس تلك التحاليل ترتسم صورة أهداف ما ينبغي أن تكون عليه تلك الاستراتيجية .

- **تمهيـــــد:**

من الواضح أن فن الكتابة يتمخض عن استراتيجيات متنوعة ومتعددة, حسب الميدان وحسب المجال ووفق الاهتمامات والهواجس المعرفية والعلمية والأدبية. وفي كل شؤون الأنواع والأنماط المعرفية, التي تثير دهشة الباحث وإعجابه, بغية التمتع بالفكرة وتوظيفها من أجل تغير واقع وإصلاح معطياته.

ولعل المقصود بالاستراتيجية أن كل مجال يستدعي الكتابة يحتاج إلى النظر إلى الموقف ككل متكامل وليس بنظرة تجزيئية تختفي من خلالها الأهداف والغايات. والكتابة الطفلية هي أحد تلك المواقف التي تثير فينا إحساسا خاصا واهتماما متزايدا, لا لشيء سوى لأن مراحل الطفولة مراحل ذات طبيعة خاصة تستلزم بالتأكيد استراتيجية تحترم منظومة من الحدود وتتضمن منظومة من القيم ,التي تتحدد من خلالها العلاقة الحميمية بين الكاتب وجمهور الأطفال. وبموجب ذلك تسهل عملية تمرير الخطاب بطريقة مفيدة ومؤثرة ويراعى فيها بالدرجة الأولى الأساليب المساعدة على النمو النفسي السليم.

ولا تكمن الأهمية في تأليف الكتب الخاصة بالأطفال فقط- وان كان مهما من جهة الاهتمام العام – وإنما تكمن أيضا في ما يحمله النص من تصور لعالم الأطفال سواء تعلق الأمر بالكلمة ,أو الصورةTP[1]PT , فللكلمة المقروءة تأثيرها وللصورة خلفيتها الثقافية والفكرية والدينية .وكل من الكلمة والصورة تحمل انطباعا يعكس شخصية الكاتب ومدى خصائص الكتابة لديه ومدى تغلبه صعوباتها وتحقيق أهداف النص.

لأن ميزة النص المكتوب للأطفال بالمقارنة مع النصوص الأخرى تكمن في شخصية المؤلف بالدرجة الأولى . ففي النصوص الطفلية لا يركز الكاتب على الجوانب التقنية والفنية فقط بل يركز على معنى الكلمة ومغزاها

[1]- انظر مقال , عالم الصورة وثقافة العين د/أحمد يوسف مجلة العربي اكتوبر 1999

ودلالة الصورة ومحتواها ليصبح النص بهذا الشكل نصا ذا بعد اجتماعي وآنساني يحقق التكامل الفردي والاجتماعي لدى الطفل.

- **خصائص الكتابة الطفلية:**

إذن كيف يمكن أن نتعرف على مميزات وخصوصيات الكتابة الطفلية ؟

في هذا الإطار لا يمكن أن نسبق الأهداف التي تعكس في ثناياها مثل تلك الخصوصيات وإنما نحاول ذكر بعض الإشارات الدالة والتي لها علاقة بخصوصيات الكتابة الطفلية.

- أول الأمر أن مرحلة الطفولة هي التي تفرض وتحدد طبيعة النص ونوع السيناريو , كما تحدد الأفضلية لما يتناسب والمرحلة " فكاتب الأطفال يتخذ من المستوى العام معيارا له , وعلى من يختار للطفل الكتاب الذي يقرأه أن يراعي ضر وفه الخاصة , ومستواه الفعلي بصرف النظر عما قد يكون مسجلا على الكتاب أو القصة من تحديد لمستوى علمي معين "TP[1]PT فالفكرة على الرغم من أن تكون على درجة عالية من الوعي فتبسط ولا تجزأ وتمرر بطريقة سلسة تتناسب وقدرة الطفل المرحلية كما يراعى في كتابة النص الطفلي الاختلاف البيئي والجغرافي لأن الكلمة أو الصورة أو الفكرة النابعة من البيئة تؤسس بدون أدنى شك تواصلا قيميا وثقافيا, واحتكاكا اندماجيا ترتسم معالمه في ذهن الطفل, وتشكل أحد المقومات الأساسية في بلورة شخصيته. فكما يتفاوت جمهور أدب الأطفال في المستويات السيكولوجية والعلمية واللغوية, كذلك يتفاوت في المستويات البيئية والاجتماعية والحضارية "TP[2]PT وإذا كان النص الذي يكتب للأطفال خاصتي: البيئة, والجغرافيا فذلك من أجل تحقيق هدف هو غاية في الإلحاح يتمثل في معايشة الطفل لأبعاده الذاتية والمعرفية والثقافية الاجتماعية. ومن أجل كذلك تحقيق التماثل الثقافي والتوافق الاجتماعي.

ولا يختلف كاتبان من أجل تحديد مضمون نص, في كونه يجد استحسانا وقبولا مشروطان بالقابلية إلى ما يمتع الطفل ويدخل عليه البهجة والسرور, لا لكونهما تقنيات جاذبة, فحسب بل لكونهما تعكسان مدى المساهمة في تدريب الطفل على تذوق الفن والإحساس بالأشياء الجميلة، فتطبع شخصية الطفل برؤية جمالية تغير من موقعه وترتقي بادراكاته الحسية في ملامسته للطبيعة. وعلى هذا تتطلب الكتابة"من مؤلفيها معرفة بالقواعد والأوزان وموسيقى الألفاظ وأسرار الجمالومواصفاته الفنية"TP[3]PT إن إعطاء فسحة للذوق الجمالي هو في حد ذاته انشراحا لأفق الطفل وبداية لعملية التأمل في مظاهر الطبيعة وفي طبيعة الأشياء مما يوسع من قدراته الفكرية . وهذه الأبيات المنسوبة إلى "باربراهيليودورا" تفيد هذا المعنى :

" أيها الأطفال سأملي عليكم

قواعد للعيش الرغيد

---

[1]- أدب الأطفال علم وفن أحمد نجيب, دار الفكر العربي ط2, القاهرة 1994,ص25

-TP[2]PT- أدب الأطفال علم وفن مرجع سابق ,ص 26

[3]- المرجع نفسه , ص 32

لا تكفي فقط القراءة
بل لا بد من التأمل
إن الدرس لا ينتج حكمة
من يصنع الحكمة هو التفكير"TP[1]PT

ولذا فالفكرة الجميلة لا تصدر إلا عن نفس تعيش الفن وتتذوق الجمال وتتمثل قيم الخير وتتوسم التفاؤل.

ومن خصائص كتابة النص الطفلي تقيده بالعمل على اكتشاف أبعاد الذات لدى الطفل. ولعل هذه الخاصية هي أحد الهواجس الجادة للكتابة. فالاهتمام الذي يقوم به الكاتب من شأنه أن يساعد الطفل على " اكتشاف ذاته ويعمل على إرضاء حاجاته النفسية الأساسية: الأمن الشعور بالإنتماء, الحب, الاحترام, والتقدير.."TP[2]PT فمن خلال الكتابة التي تهتم بعلاقة الطفل بالعالم الخارجي من شأنها أن تنمي لديه قدرات التحليل والتركيب والتمييز ,فيميز بين ذاته والعالم الخارجي, وبين ذاته والآخرين، فيدرك ما لذاته من وزن وما لشخصيته من قدرات. وبهذا المعنى" تقدم الكتب بشروط يتقبلها الأطفال, ويترك لهم دائما حدا من الغموض كي تكتشفه الطفولة بعبقرية حدسها"TP[3]PT فاكتشاف الذات والوعي بأبعادها ليس عملا تأمليا خاصا بالكبار , وإنما للأطفال تساؤلاتهم البريئة في هذا الصدد .لذا فالإجابة يفترض أن تكون بسيطة وصادقة وملائمة لما تمتلكه ملكاتهم من قدرات.

ومن الخصائص العامة للنص الطفلي, هي ما يتعلق بالتنشئة الاجتماعية. فالكتابة في إطار هذا المفهوم ووفق الخصائص السابقة لا تخرج في كونها قالب تدريبي وتربوي يأخذ بالحسبان معالجة الخصائص النفسية الاجتماعية التي تساهم وتساعد على الاندماج والتكيف, وتعلم الأدوار الاجتماعية والقيم والمعايير والمواقف التي يرتضيها الجماعة. إن هذه الاهتمامات المتعلقة بالتنشئة الاجتماعية, سواء تعلق الأمر بالجوانب النفسية أو التربوية, تظل أحد الاهتمامات الملحة في تصور وكتابة نص مؤثر ومفيد "فالاعتبارات التربوية يجب أن تحتل مكان الصدارة في عملية الموازنة بين الاعتبارات, بحيث لا يمكن التضحية ولو بصورة جزئية أو مؤقتة في سبيل تحقيق حبكة قصصية ممتازة أو في الوصول بالحدس المسرحي إلى قمة مثيرة أو في سبيل خلق عنصر الفكاهة أو عامل من عوامل التشويق. فهذه كلها أمور رغم أهميتها يجب أن لا تصل إلى أهدافها الفنية على حساب الاعتبارات النفسية"TP[4]PT .

---

[1]- عن مشكلات الأدب الطفلي, تأليف سيسيليامبرايل ترجمة مها عرنوق منشورات وزارة الثقافة , دمشق , سوريا 1997ص9

[2]- النظريات التربوية المعاصرة , ي برتراند ترجمة محمد بوعلاق, قصر الكتاب 2001 , ص 33

TP[3]PT- مشكلات الأدب الطفلي .مرجع سابق .ص 36

[4]- أدب الأطفال علم وفن أحمد نجيب , مرجع سابق ص31

فالنص الذي يقدم للطفل في أي ميدان مهما كان يخضع إذن لخصوصيات لا يخلو تحقيقها من صعوبات التي تتعلق أساسا بالعلاقة النفسية بين الكاتب وجمهور الأطفال وبمدى تجسيد أدوات وتقنيات نظرية المعرفة ومجالات تطبيقاتها.

الصعوبات:

تقتصر الصعوبات –كما سبق القول- على المسافة التي تحدد العلاقة بين الكاتب والطفل , وبين الكاتب وأدوات المعرفة وتقنياتها.

في البداية العلاقة بين الكاتب وعالم الطفولة, علاقة جد حساسة, تقتضي استغراق تام لكل مستلزمات عالم الطفولة, التي يجب مراعاتها والتنبه إليها، ولا يكون ذلك إلا من كاتب ذا مقدرة على فهم واستيعاب لعالم الطفولة. وعلى هذا الأساس "ماذا يوجد في الكبار من طفولة, حتى يستطيعون التواصل مع عالم الطفولة"TP[1]PTتعد هذه الإشكالية من أهم وأدق المشكلات , إذ يتعلق الأمر بمبدأ لا بد منه في الكتابة الطفلية , حيث يقتضي من الكاتب إقامة جسرا من التواصل مع عالم الطفولة. ويتجسد ذلك, عن طريق ما يوجد في الكبار من عناصر مميزة, تخص الطفل. وذلك كي يسهل عليه الدخول فيما يريد أن يفعله, أو فيما يريد أن يعرفه، أو عن طريق ما يتسلح به الكبار من ثقافة شاملة يرتقون بواسطتها الى مستوى الفهم الطفلي. وعلى الرغم من مقولة "الرجل هو طفل كبير" على الرغم من ذلك الوصف, تبقى مسائل الفهم, وتمثل شخصية الطفل من أهم الوسائل المساعدة على كتابة النص الناجح والمؤثر في بلورة شخصية متزنة وبناء نمو نفسي سليم. لأن في مثل هذه الحالة لا يوجد منفذ للتأويل, كما لو كان النص بين الكبار وحدهم. وأما وأن النص يمرر من مستوى إلى مستوى آخر فيحتاج إلى تمعن في اختيار الكلمة والصورة الفنية "فالكبار هم الذين يكتبون لهؤلاء الأطفال, وهم قد تجاوزوا هذه المرحلة مما يتطلب منهم ليس فقط استرجاع طفولتهم بملابساتها والعوامل المؤثرة فيها. ولكن عليهم أن يعايشوا طفولة اليوم بكل متغيراتها"TP[2]PT.

أما بالنسبة للصعوبة الثانية, فيتعلق الأمر بعكس أبعاد الصعوبة الأولى "ما يوجد في الطفل مما هو عند الكبار, حتى يتقبل ما يقدم إليه من الكبار "TP[3]PT، وهذه الصعوبة كما في الصعوبة الأولى تخص الكاتب بالدرجة الأولى. فالكاتب يهمه التلقي, كما يهمه تمرير الفكرة وفهمها من طرف الطفل، فيراعي الكاتب من خلال ذلك, نوعية وطبيعة الخبرات المكتسبة , ونضج الوحدات المنطقية , وحضور الأدوات الحسية والعقلية. وهذا ليس معناه التضحية بالفكرة , بقدر ما يعني إشباع النص بطرق ووسائل بغية تبسيط الفكرة وفق معطيات الفهم لدى الطفل. ولذا يلجأ كثير من الكتاب في تمرير الأفكار بطرق ووسائل بغية تبسيط الفكرة وفق

- TP[1]PT مشكلات الأدب الطفلي , مرجع سابق ,ص32

[2]- النص الأدبي للأطفال, سعد أبو الرضا , منشأة المعارف الاسكندرية 1971, ص8

[3]- مشكلات الأدب الطفلي , مرجع سابق , ص32

معطيات الفهم لدى الطفل. ولذا يلجأ كثير من الكتاب في تمرير الأفكار والحكم على ألسنة الطيور والحيوانات.

بالإضافة إلى هاتين الصعوبتين, هناك صعوبة لا تقل أهمية، ويتعلق الأمر بنظرية المعرفة وبتطبيقاتها, والتي يستلزم من الكاتب الطفلي على وجه الخصوص الاعتناء والاستفادة من أدواتها, ومن تساؤلاتها ومن نتائجها، مثل: ماذا نكتب؟ وكيف نكتب؟ ولمن نكتب؟ وإذا كان لابد من الكتابة, ففي أي ميدان من ميادين الطفولة نكتب؟ وبأي الطرق والوسائل نكتب؟ وبأي خطاب نمرر النص الطفلي؟ وما الذي يخاطبه النص من ادراكات الطفل؟ هل يخاطب الحواس والمشاعر أم يخاطب العقل؟

هذه التساؤلات ذات معاني تتعلق أساسا بالوسائل التي يدرك بها الطفل المادة المقدمة .

الأهداف:

على ضوء الخصوصيات والصعوبات الكتابية السابقة .يمكن أن ترتسم لنا مجموعة من الأهداف المترتبة عنها:

- المحاولة الجادة في تحقيق التماثل في الكتابة الطفلية بين مستوى الكاتب ومستوى جمهور الأطفال.
- المحاولة الجادة في ارتقاء الكاتب إلى فهم الطفل وتطلعاته
- تأكيد أهمية المعرفة العلمية ذات الصلة بالدراسات النفسية والاجتماعية, وذلك بغية تدعيم وإيضاح محتوى ومغزى الكلمة والصورة
- الإلحاح على أهمية كل مرحلة من مراحل الطفولة
- تعتبر نظرية المعرفة هدفا في حد ذاته, في كونها تشكل منهجا علميا ينظم ويرتب ويعمق مادة النص
- التأكيد على أهمية المواقف الفنية الجمالية في الكتابة الطفلية
- التأكيد على مراعاة الخصائص النفسية والعقلية والاجتماعية في الكتابة الطفلية

المراجع:

- أدب الأطفال ,علم وفن, أحمد نجيب, دار الفكر العربي, القاهرة , ط2, 1994
- مشكلات الأدب الطفلي, سيسيليا ميرايل , ترجمة مها عرنوق, منشورات وزارة الثقافة, الجمهورية العربية السورية, دمشق 1997
- مقدمة في ثقافة وأدب الطفل, مفتاح محمد دياب, الدار الدولية للنشر والتوزيع , القاهرة ,ط1 1995
- النظريات التربوية المعاصرة, برتراند, ترجمة محمد بوعلاق, قصر الكتاب,2001
- النص الأدبي للأطفال, سعد أبو الرضا, منشأة المعارف الاسكندرية, 1971
- تاريخ الكتاب , القسم الأول , الكسندرستيبتشفيتش, ترجمة محمد الأرناؤوط مجلة عالم المعرفة , العدد 169 السنة 1993
- مقال, عالم الصورة وثقافة العين, أحمد يوسف ,مجلة العربي اكتوبر 1999